عن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في قالب الأمر والنهي بالترغيب والترهيب! ثم الآية التالية تتكفل صراحاً تلك السلبية الملمحة من ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بصورة مبرهنة بينة:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿إِنَّمَا﴾ هنا تحصر عبادتهم في ﴿أَوْثَٰنًا﴾ وهي تماثيل خشبية أم حجرية أماهيه من جمادات، مما يبين انهم كانوا - فقط - عبدة الأوثان وهي أنذل العبادات وأرذلها بين كل ما يعبد من دون الله، أن يعدلوا بها عن عبادة الله.

وليس فحسب أن تعبدوها بل ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ خلقاً لما تنحتون، ثم أنتم تعبدون ما تخلقون، وإفكاً فيها انها شفعائهم عند الله، ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله زلفى، وأمثالها من مختلفات الزور والغرور التي يخلقونها فيما يعبدون، وماذا يملكون لكم حتى تعبدوهم؟ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ وأصناماً أم حيواناً وطواغيت أم أياً كان حتى النبيين والملائكة المقربين، والجامع لهم أنهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهم كلهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ بل ولأنفسهم ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أياً كان ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ لأنه الله الخالق الرازق ﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾ بما يرزق، فانكم ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى سواه ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وإن الرزق هو مشغلة النفوس في الأكثرية المطلقة، تعبد من تراه رازقاً، فكيف أنتم تبغون الرزق من دون الله وتتركون الرازق وهو الله، فهو المبدء وهو المنتهى وهو الرازق لكم فيهما وبينهما ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ مما كسبت أيديكم أمّا لم تكسب، و«عند» هنا دون «من» علّها إشارة إلى معدنية الرزق ولد نيته عنده، مهما كانت له أسباب منها يرزق المرزوقون، سواء أكانت اختيارية أم سواها، فليطلب المرتزق الرزق من أي سبب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عند سواه.

أمن العقل أن يترك الرازق ويبغى الوسيط أن يطلبه من الله، فتعبدونه حتى يطلب؟ ولا وسيط في طلب الرزق، ولا يملكون هؤلاء طلباً له من الله، ولا أن يعبدوا من دون الله، وحتى لو ملكوا طلباً من الله فعبادتكم إياهم دون الله يقطع عنكم رزق الله وشفاعتهم - المزعومة - عند الله ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ - وهكذا نرى كيف يفنّد أوثانهم في كل زوايا الربوبية، فذاتية أنها «أوثان» لا تعقل، وصفاتية أنها لا تملك لكم من الله شيئاً إلّا أنكم «تخلقون» لها ﴿إِفْكًا﴾ وأفعالية أن ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أياً كان، والعبادة قد تعني كمال الذات، أم كمال الصفات، أم كمال الأفعال، وهي مسلوبة الكمالات، إذا ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كله، فما أحمقكم إذ تنحون نحو الفقير اللّاشيء وتتركون رب كل شيء؟! وهنا ندرس أن طلب الرزق عند غير الله كعبادة غير الله إشراك بالله، وإنما علينا أن نتوسل بالأسباب المسموحة لنا في طلب الرزق عند الله، متّكلين في ذلك على الله دون سواه.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾:

أترى ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ هي من تتمة الحجة الإبراهيمية؟ ولم تسبقه أمم إلّا أمة نوح! أم هي الحجة القرآنية دون نقل، تلحيقاً للحجة الإبراهيمة للمخاطبين بالقرآن، كما وتؤيدها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا . . .﴾ بصيغة الغائب؟.

الجمع هو الأرجح، وأمم قبل إبراهيم تشمل أمة نوح ومن قبله من المرسلين كإدريس وآدم وشيث، كما وإن أمة نوح في قرونه العشرة قرون عشرة قد يعبر عنهم بأمم.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ قالتي الحقة عن الله وما عند الله فلستم أنتم بدء من المكذبين ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ دون سباق وشطارة لكم بينهم ﴿وَمَا

عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ تجاهكم ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ عن الله ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ لما أرسل الله ولقد بلغت وأبنت رسالة صادقة من الله و﴿ٱلْمُبِينُ﴾ في مواصفة ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ هي مما تبين أن البلاغ الرسالي لا خفاء فيه ولا إجمال يعتريه، وتأخير البيان عن وقت الحاجة بلاغ غير مبين، فلا يصدّق على الوحي الرسالي إطلاقاً.

هذه خطوات تربوية يخطو بها الداعية إلى هؤلاء الألداء ضد الدعوة، تدخل إلى قلوبهم من مداخلها، بإيقاعات قوية على أوتارها، ودقّات عميقة في أوطارها، كنماذج خلّابة غلّابة يجب أن يتملاها أصحاب الدعوات الرسالية لينسجوا على منوالها في كل أحوالها في مخاطبة النفوس وإزالة النحوس.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾:

الواو هنا تعطف إلى محذوف معروف من الآيات الأنفسية الدالة على وجود الله وتوحيده في كل ربوبيته، وإنكم إليه ترجعون، فإذا لم يروا أنفسية الآيات حيث الأبصار كليلة والنفوس عليلة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟...﴾ إلى آفاقية الآيات: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ على طول الخط هنا في الأولى، و﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ أوّل مرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ مرة أخرى في الأخرى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ بدأ وإعادة ﴿قَدِيرٌ﴾.

وعلّ الرؤية الأولى هي - فقط - الرؤية البصرية، أم والبصرية الناتجة عن النظر كما في الثانية: ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ وهي على أية حال رؤية مستمرة على مدار الحياة العقلية لكل عاقل راء راع في رؤيته تكشّف الحق، و﴿كَيْفَ﴾ لا تعني هنا وفي ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ حق الكيفية فإنه خاص بالخالق علماً وقدرة في «كيف يبدئ وكيف بدأ»؟ وإنما تعني ظاهراً من البدء والإبداء والإعادة، الباهر

لكلّ راء وناظر، فقد يبدي الله خلق كل شيء من كل شيء - بعد خلق المادة الأم - فإن خلقها بدء صيغته «بدء» كما الثانية، دون «يبدئ» كما هنا، الدالة على الاستمرار، ومن باب الإفعال، فكل ما يخلق من شيء ثم يعاد إلى شيئه الأوّل كالماء والبخار، والتراب والأشجار والحيوان والإنسان، كل ذلك داخلة في نطاق ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ على مدار الخلق بعد المادة الأولى، والإبداء هو إظهار البدء، كما الإعادة هي إظهار العود، عوداً إلى بدء، فالمادة واحدة وإنما الاختلاف في الصورة الماهوية والظاهرية.

ثم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كما تعني الإعادة المستمرة كذلك تعني الإعادة الأخيرة يوم القيامة وهي أهون عليه، ثم ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ دون «أبدء» مختلفة عن «يبدئ» مضياً وتعدية، تدلنا على الفرق الواضح بينهما معنوياً وواقعياً، مهما اشتركا في الخلق والإعادة.

فـ ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ نظرة أولى تنتج رؤية أولى، مما يطمئن ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾[1] و﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[2] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الخلق إبداء وإعادة ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ من هيّنه وأهونه، ثم ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ تخط عن هذه المرحلة المستمرة إلى البداية الأولى في خلق المادة الأولية، كما و﴿ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ترمي إلى النهاية، وهما أهم من ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بين الأمرين، فلذلك ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟...﴾، فـ «بدء الخلق» هو أهم من ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ وكل هذه الثلاث من خلق الله، وهي على الترتيب في حدود ذواتها صعب وهيّن وأهون، مهما كانت في قدرة الله على سواء، ولكن يستدل بالأوّل الصعب وبالثاني الهين على الثالث الأهون، ومهما كان الأولان قضية الفضل، فالثالث هو قضية العدل، فهو

(١) سورة البروج، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

أولى من الأولين بأولويتين، وهنا لك الإعادة بعد الإبداء تشمل كل مراحل الخلق والتحوير أولاً وأخيراً، والإعادة المعاد - وهي إعادة الصورة بمثلها والمادة هي هيه بعينها - هي من ضمن ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وكخلفيّة لكافة الإعادات، فما إعادة الإنسان إنساناً في الأخرى إلّا كإعادته تراباً كما كان، وإذا كانت هذه في الأولى مصلحية الحياة الدنيا، فالإعادة الأولى في الأخرى أصلح وأولى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]، وأما ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فقد تخص الخلق الأوّل لا من شيء، أم وخلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ﴾ الذي بدء الخلق ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ككل في كلّ ما بدء، وكخاصة الإنسان وسائر المكلفين، فـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[3] ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[4]، وذلك الإنشاء إنما هو إنشاء الصور، والمواد هي كما هيه، إنشاء للصورة الإنسانية مثل الأول لا عينه، وإنشاء رجع الروح إلى البدن في صورته المنشأة، وإنشاء لليوم الآخر مكاناً وزماناً آخرين يختلفان عن الأوّل.

كل ذلك لـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ سواء أكان كائناً فيقدر على تحويله أو إعدامه، أم قبل كونه وهو ممكن التكوين وصالحه كالمادة الأوّلية، أم غير صالح التكوين فلا يكوّنه لأنه خلاف الحكمة، وأما الممتنع التكوين ذاتياً فليس شيئاً حتى يبحث عن تعلق القدرة به وعدمه، فإنه اللّاشيء المطلق، كما أن الله هو الشيء الطلق، والأشياء الممكنة التكوين جوهرياً أم ماهوياً هي النسبية في الشيئية، فقد تكون شيئاً لأنها كائنة بما

(١) سورة الواقعة، الآية: ٦٢.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٤) سورة النجم، الآية: ٤٧.

كونها، واخرى لأنها قابلة التكوين كالمادة الأولى[١]، وهنا ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ عطف للنظر العقلي إلى بدء الخلق وهو أصعب من الإعادة، والسير في الأرض، وهي هنا أرض التكوين بمختلف الأبعاد الفيزيائية والكيماوية، ينتج أن الكون له بداية، ولا بد للبادئ كون خلاف كون المبدء، لا والد له ولا علة غير إرادية أم محصورة، بل هو خالق خلق الشيء الذي كل الأشياء منه، لا من شيء، لا من شيء ولا من لا شيء، أجل وإن السير في الأرض هنا سير فطري وعقلي وعلمي وحسي، يفتح العين والقلب على كيان الكون، لفتة عميقة إلى حقيقة أنيقة دقيقة حقيقية للالتفات.

صحيح أن جل المخاطبين بهذا القرآن أو كلهم - سوى الرسول ﷺ وأهليه المعصومين عليهم السلام - لم يكونوا ليعرفوا هكذا ﴿كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ ولكن الذي يتمشى مع الدعوة القرآنية ككلّ، هو إنه توجيه لكافة المكلفين منذ نزول القرآن إلى يوم الدين، كلّا على قدره، حيث السير في الأرض آفاقياً وأنفسياً، مما يبرهن ﴿كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾:

له المشية العادلة فـ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ والمشية الفاضلة ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ وإليه لا إلى سواه ﴿تُقۡلَبُونَ﴾ عن هذه الحياة الدنيا إلى الأخرى، لا فقط قلباً لحياة إلى حياة، بل وقلباً عن ظاهرها إلى باطنها، وعن اختيارها إلى اضطرارها، وعن أعمالها إلى نتائجها، وعن كل ما تتطلبه الأولى، إلى طلبات الأخرى «ولله الآخرة والأولى» - ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[٢].

---

(١) تفصيل البحث عن القدرة مذكور في سورة الملك ج ٢٩ من الفرقان على ضوء آية القدرة.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٠.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ شئتم أم أبيتم إذ أنتم لا تغلبون ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ربّكم، لا في الأولى ألّا تقلبوا، ولا في الأخرى ألّا تعذبوا، فالأرض والسماء صيغة أخرى عن الكون كله هنا وهناك، فلا تعجزون الله تفلتا عن ملكه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[1] ولا تعنّتا عن ملكته وإرادته: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أموركم هنا وهناك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم عن بأس الله.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

كفراً بآيات الله آفاقية وأنفسية، الدالة على ربوبيته الوحيدة غير الوهيدة ولقاء لثواب الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعيدون عن منافذ المعرفة الربانية ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ في الدنيا والآخرة، فالمؤمن بآيات الله ولقاءه لا ييأس من رحمة الله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو أبد الخلود في الجحيم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بعد هذه الحجج البالغة ﴿إِلَّآ﴾ جواب كل أحمق نكد: ﴿أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ﴾ بأية قتلة ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وهي شر قتلة، إذ حرق أكبادهم حين كسر أصنامهم، إذا فحرقة بحرقة، ولكن ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ في ذلك المسرح الخطير قائلاً: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2].

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

هنا ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وفي أخرى ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾[١] وعلّ الجمع انهم عزموا في البداية على قتلة، ثم على إحراقه لأنه أشد وأنكى، أم كانوا مفترقين بين قتله وحرقه، فتغلبت الفرقة الأخرى، وعلى أية حال عزموا على إحراقه فألقوه في الجحيم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الحجاج، وخلفيّة اللجاج ﴿لَآيَٰتٍ﴾ ربانية ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ آية لكون الرب، وآية لكيان الربوبية، وآية للرسالة الصادقة، وآية للعاقبة الصادقة، آيات مع بعض وتلو بعض ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبآياته ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢].

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿وَقَالَ﴾ هنا بعد ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ تلمح انها قالته لهم بعد نجاته: ﴿إِنَّمَا﴾ ليس إلّا ﴿ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ لا لأنها آلهة من دون الله، ولا أنها شفعاءكم عند الله، ولا أنها تنفعكم إذ تعبدون، أو تضركم إذ لا تعبدون، بل ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي منصوبة مفعولاً لها، أم وبنزع الخافض بتقدير لام التعليل، إذا فـ ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ سبب وغاية مقصودة في اتخاذ الأوثان.

ثم ﴿بَيْنِكُمْ﴾ قد تعني كل بين في هذا البين: بينكم والأوثان، وبينكم وآباءكم الأقدمين، بينكم ورءوس الإشراك، وبينكم التابعين، حيث تودون الأوثان الذهبية والفضية أماهيه من الجواهر الثمينة وسواها، وتودون آباءكم فتقلدونهم في ذلك الاتخاذ، وتودون زعماءكم فتتبعونهم فيه، وتودون

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

بعضكم بعضاً وأوثانكم هي صلة المودة والوحدة، وكل ذلك «مودة الحياة الدنيا» فلا اعتقاد هنا ولا اقتناع، وإنما مجاملة ومعاملة دنيوية، بسبب المودة فيها أم لغاية استبقائها أو حصولها، وهذه سنة بئيسة في الجماعات التي لا تأخذ الطقوس العبادية مأخذ الجد العقيدي، وإنما هي مصلحية الحفاظ على صالح الحياة الدنيا دون ان تملك وراءها حقاً صالحاً للإتباع.

ولأنها «مودة الحياة الدنيا» وخلتها ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١] - «ثم» بعد مضي الحياة الدنيا ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، فالآلهة تكفر بعبادتهم: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[٢] ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[٣].

والمتبوعون: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[٤].

وكلّ يلعن الآخر وهم زملاء في الإشراك ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[٥].

ثم ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ عابدين ومعبودين، آباء وأبناء، أتباعاً ومتبوعين، وزملاء في الإشراك، وذلك ثالوث العذاب:

١ - يكفر بعضكم ببعض ويلعن.

٢ - وإن مأواكم النار، وهي مجمع كل الأودّاء في الشرك!

٣ - ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ مما اتخذتم أوثاناً من دون الله وسواها، رغم ما جمعتم من جمعكم في ذلك الإشراك ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.
(٢) سورة مريم، الآية: ٨٢.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾:

«آمن له» ليست لتعني ما تعنيه «آمن به - آمن معه - آمنه» فكلّ من هذه الأربع تعني ما تخصه من معنى حسب نوعية التعدية كما هي قضية الفصاحة.

ف «آمن به» هي كأصل الإيمان هو الإيمان بالله، وكوسيط هي الإيمان برسول الله، من أمته ككل امة، ومن رسل برسول كمحمد ﷺ ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾[١] فليس يؤمن رسول برسول حيث الرسالة هي بنفسها ايمان بالله دون وسيط، اللهم إلّا تجاه محمد وهو رسول الرسل، و«آمنه» جعله في أمن هو خاص بالله وهو ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ...﴾[٢] وهو مجازياً أن تؤمن خائفاً عما يخاف، لا أن تجعله في أمتك كما الله.

و«آمن معه» تعني معية الإيمان بالله كما الإسلام معه ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣] - ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾[٤].

و«آمن له» هو إيمان بالله لرسول يدعو إلى الله، إيماناً لصالح الموكب الرسالي أن يصبح من أعواد الرسالة وأعضاد الرسول، بعد ما كان مؤمناً بالله، وهكذا كان لوط عليه السلام مؤمناً بالله، وبعد أن تعرّف إلى الرسالة القمة لإبراهيم الخليل آمن له احتساباً لنفسه بإيمانه السابق من ذلك الموكب الرسالي السامي، كما ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾[٥] بعدما ربطوا إيمانهم هذا بأن يرووا الله جهرة: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾[٦].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٣.
(٣) سورة النمل، الآية: ٤٤.
(٤) سورة هود، الآية: ٤٠.
(٥) سورة يونس، الآية: ٨٣.
(٦) سورة البقرة، الآيتان: ٥٥، ٥٦.